

قَسَمَة مِنْ مَا يَأْكُوفِسْكِ

بقلم عبد الرحمن الخبيسي

استمع الى معين بسيسو يقول :

كاله من غير يدين

تبعني يا وطني وغراب البيين

يرج قدامي ويصيح الى أين ؟

يا طالب رأس القيصر يا حافي القدمين !

وموقف معين بسيسو ، يؤكد ان التزامه ليس عبئا على الثورة ، ولكنه يقطع بأنه التزام يخصب الثورة وفكرها وفننها ، ويشري أحلامها ، ويفتح امامها الطرق ، كما يفتح عليها نوافذ الشمس .

كذلك ، فليس موقفه تابعا بقدر ما هو موقف رائد ، يستلهم الثورة ، فتلهمه ، فيصوغ أشعاره ، تنبض فيها ملامحه الخاصة ، في اطار الرسالة العامة للشاعر الملتزم .

وقد قسم الشاعر ديوانه الاشجار تموت واقفة ، الى ثلاث كراسات . وقد ضمن الكراسة الاولى فلسطين كما يحسها ، ويحبها ، ويجلوها في صور شعرية تتميز بالصدق وبجدة الابتكار الفني . . . نحن امام شاعر كبير يقدم لنا من خلال مشاعره وقدرته الفنية وصدقها ، فلسطين وأرضها وأحلام أهلها ، كما لم يقدم شاعر من قبل .

يافا بطن الحوت ما زالت يجوب بها البحار

الحوت تاه . .

من ذا يدل الحوت يا طفلي

ويطويه العباب ؟

من ذا يعلق في رقاب

هذي الذئاب السود أجراسا ويطمع في الاياب !!!

ووسيلة الشاعر القادر هنا ، هي الصورة كما نرى ، بل اكثر من ذلك ، هي العمل على اطلاق العبير من الصورة بعد رسمها ، حتى يهتز القلب ويفرورق الخيال بالفيوم تخلق لدى القارئ حسالة « العدوى » كما يقول تولستوي بالجو المراد تصويره ، ونقله السى النفس والعقل . العبير الباطني في العمل الفني عامة ، وفي الشعر بصورة خاصة ، هو سمة ظاهرة تفرق عملا من عمل ، فتولى القصيدة بقدر ما يشيع منها العبير ، حقها من الاستمرار أو التسوقف ، من الحياة أو الموت .

ونحن كثيرا ما نطالع قصائد يعتمد منها ذلك العبير ، كالوردة المصنوعة من الورق المقوى ! ولكن شعر معين بسيسو ، يمثل النقيض ، فهو البذرة تحتضنها الارض ، ويسقيها الماء فتترعرع ، وتمنحها شمس الحقيقة شعاع النماء ، فتكبر ، وتخصر ، وتزهر ، وتنتفح ، وتنفوح . . .

كبرت في القفص الاشبال

والغاية تحت بساط الشاه

الكأس الاولى : آه

ويستطيع من يتتبع شعر النكبة ، ان يلحظ ظاهرة واضحة ، هي أن أغلب ذلك الشعر ، يتجه الى بكاء الماضي ، فهو يذكر ما كان ، ويندب سوء الحظ ، ويسرني حياة كانت ! وأصحاب هذا الشعر صادقون فيما ينظمون ، يعكسون شعورا حقيقيا ، ويصورونه .

يعتبر معين بسيسو من أخصب شعراء هذه الحقبة انتاجا ، فقد صدر له حتى اليوم ستة دواوين من الشعر هي على التوالي : المعركة ، وقصائد مصرية ، ومارد من السنابل ، والاردن على الصليب ، وفلسطين في القلب ، والاشجار تموت واقفة ، وهو موضوع هذا الحديث .

واعلم من مصادر تلك الخصوبة الفنية ، ان الشاعر نفسه ينسج من مأساة فياضة بالمواطف ، زخارة بالمواصف ، فهو ابن بار لفلسطين المحتلة ، ما كاد يبلغ عمر الشباب ، حتى شهد وطنه تدوس شبابه أقدام المتصين ، ومعين هو هو ، حساسية شعور ، والهيام نفس ، وعزيمة عمل .

كان معين في ميعه صباه ، حين وقعت الكارثة التي أجلت عن الارض اصحاب الارض ، ولكنها لم تستطع ان تقتلع من نفس الشاعر الحساس وعقله ، صورة الوطن ولا فكرته ، بل أجمت عاطفته ، وألهبت خياله ، وعمقت وجدانه الفني ، وربطه بالوجدان القومي العام ، ليصبح أنقى وأصدق وأقدر زممار ، ينفخ فيه قلبه الحر أروع الالحن الفلسطينية .

وقارئ معين بسيسو ، اذا هو آمن انظر في أعماله الشعرية ، تبين له ، على ضوء تطور تلك الأعمال واحدا بعد الآخر ، بانغم من وضوح النفس الشعري فيها جميعا ، وبالسرغم من انتظامها بالصور الفنية ، وتدفق السيل العاطفي من خلف أبياتها في كافة الدواوين ، ان معين بسيسو ، قد تطور ايضا ، كفننا نابع من المأساة الفلسطينية ، الى فننا ملتزم لا بقضية وطنه الصليب فحسب ، ولكن بكل القضايا المرتبطة بمسائل الحرية والسلام العالمي .

لقد تولد الالتزام عند معين بسيسو بصورته العامة ، من التزام الشاعر بمسألة فلسطين . بل ان ارتباط الشاعر بموضوع وطنه المحتل ، كان أساسا فيها بعد ، لفكرية الشاعر ، واستطاعت التجربة الإنسانية لديه ، أن تعمق التزامه ، وأن تبني له نافذة وزاوية يطل منها الى الحياة ، فتألفت له وجهة النظر التي تقف الى جانب الحق ضد الباطل ، والى جانب العدل ضد الظلم ، والى جانب الحرية ضد الاستبداد والقهر ، والى جانب بناء الحياة ضد اعداء الحياة .

حدث في روسيا القيصرية ، أن ألقى القبض على الشاعر الانساني الكبير الكسندر بوشكين ، ونفي الى خارج الحياة . . ثم شهدت روسيا القيصرية حركة الديسمبريين ، فقاومتها أدوات القيصر وأجهزة حكمه ، وتمكنت من قمعها بشدة . . وقد ارتفعت في المحافل الادبية حينذاك ، أصوات عديدة تطالب باعادة بوشكين من المنفى الى الحياة . . ولم يكن القيصر يحب ان يستجيب لتلك الأصوات . . لم يكن يود ان يطلق سراح الشاعر الانساني الكبير ، لولا ان الضغط على مسألة بوشكين ، كان واضحا وآتيا من جهات مختلفة ، ويشكل في الرأي العام قوة ، من مصلحة القيصر أن يتظاهر بالتجاوب معها . . لذلك ، أفرج القيصر عن بوشكين ، واستدعاه الى قصره ، وسأله عن موقفه من الديسمبريين لو انه كان حرا في بطرسبورج حينما رفعوا راية العصيان .

وأجاب بوشكين في شجاعة منقطعة النظير ودون أن يخالجه أقل التردد : - كنت سأقف الى جانبهم . .

هذا الموقف لبوشكين ، هو موقف الشجرة التي تموت واقفة . .

ولم يزل عثمان
يداه تقطعان ارض الله
وهو خاشع يرتل القرآن

كاني ارى ابا ذر الفغاري يتهم في هذا العصر ، اولئك الذين
يسلبون من الاشياء لبابها الحي ، ويلقون بها الى الطريق مصاصات
فقدت عصير الحياة ، حتى يطلق صيحته الاخيرة :
لو تهندي الي ايها الصديق
والذئب في الظلام نجمة
تنور الطريق ...

ويرسم معين بسيسو ، بعد ذلك ، صورة لاحلام عبد الله بن المقفع ،
فيقول :

وشيت بي قتلنتي
وكنت شاهدا علي في بلاد ((ديشليم))
وكنت صاحبي القديم !

الي ان يقول :

قتلت حين قلت للاسد

تموت ايها الملك

تموت حين تسقط اليمامة الزرقاء في الشرك

وتنفجر الصيحة بعد ذلك ، فيضيف الشاعر على لسان ابن المقفع :

معذرة مولاي انا بشر

نوح كالحمام نليس السواد

ثم يطلع القمر

ويملا الزئير من جديد قلبنا

ويسقط المطر

وهنا ، في رؤيا معين بسيسو ، يقف عبد الله بن المقفع الجديد ،
في مواجهة المكارية في الفن والادب ، حيث تنتصر الحياة على الوحوش !
وفي قصيدة « أغنية على النطع » ، يشرق موقف الشاعر الملتزم
من أعداء الانسان أعداء الحياة الذين يريدون الشاعر يقاء في فقص !
ويقول معين في قصيدته ، وهو يحمل نطمسه على كتفيه ، ووسادته
السيف :

منذ أقيت على طاووسك الاعرج

حبري

المرأة ينبوع الفنون

يقول اصحاب الخبرة ان المرأة مبعث وحي
للمتفوقين في الفنون الجميلة ، ولا سيما الشعر ،
والموسيقى ، والتصوير . فهل يصدق هذا الرأي في
حياة الموسيقار العبقرى فاغتر ؟

هذا ما حاول الاديب اللبناني جورج جرداق
شرحه في كتاب قيم عالج فيه نمو الحب في نفس
فاغتر من « طفولة العاطفة » الى شيخوختها .

وفي الكتاب طائفة من الرسائل والحوادث
المدهشة ، والتشرد الذي ينتج بدائع الفن ، فاطلبه من
« دار المكشوف » ، بيروت ، ص.ب. ٥٨١ ،
تلفون ٢٢٤٧٧٠ ، تجد فيه ما تصبو اليه نفسك من
الادب ، والدرس ، والاستنتاج القائم على الحقائق
المستمدة من صلب الحياة .

ولكن معين بسيسو يختلف عن هؤلاء الشعراء ، في موقفه . .
انه يجعل من الدمة قطرة سائلة من نار ، ويتخذ من الحزن دافعا
للونبة المقبلة ، ويمزق الظلمة عن فجر مشرق .

ناري بلا لهب

ونجمتسي بلا ذئب

وحدة الحصان كل ما كنت

لا تفب

يا ايها العصفور في السحب

ما زلت فوق نمشك الملعون أنتحب

وكيف هذه الاوزة الخشب

تعطي لمن ينوح

بيضة من الذهب ؟

ويذكرني معين بسيسو بالشاعر مايكوفسكي السذي كان يلقي
قصائده في محافل العمال ، وفي ندوات المصانع ، ويتجه بقصائده
الى الناس العاديين . . ان معين هو الآخر ، يستلهم شعره من الناس
والحياة والاحداث المتباينة ، وهو يذهب بقصائده الى أبناء فلسطين
خاصة ، والى الراي العام اتعالي بصورة عامة . . انه يلقي قصائده في
المحافل ، يصور النكبة ، ويجسم نتائجها ، ويستنهض الهمم ، ويجسد
صياح الذين فقدوا وطنهم العزيز .

وللشاعر مايكوفسكي قصيدة شهيرة عن جواز سفره . ولعين
بسيسو ايضا قصيدة هامة في ديوانه حديث اليوم ، عن جواز سفره
كذلك ، وبالرغم من ان الظروف مختلفة في الحالتين ، فاني ارى قسمة
مايكوفسكي في وجه معين . . استمع اليه يقول :

للسائح العجوز ، للطاووس

للمهرب السعيد

نوافذ القطار ، صولجان البحر

ريشة العنقاء للامير

شباك هذه الارض بابها

بطاقة المرور

يا هذه الاخشاب سندات

يا هذه الحدود

طرفت باب من احب

ردني ناطور بينه الشرير

وتتضمن الكراسية الثانية من الديوان نماذج مقابلة في الشعر
العربي . فقد صور الشاعر من وجهة نظره البانية ، زوايا ايجابية عند
ابي ذر الفغاري ، وعبد الله بن المقفع ، وعمار بن ياسر .
ولم يقف الشاعر موقف العارض الفوتوغرافي لصورة التقطها باله
تصويره ، ولكنه كما يفعل الفنان الملتزم ، يرسم بريشة زيتية
تلك النواحي الايجابية عند اولئك ، ويربط تلك اللوحات برموز تصلها
الى هذا العصر ، فتلوح بنبل الحق . . كان ابا ذر الفغاري ، يهود
الى عصرنا ، فيشهر من خلال قصيدة معين بسيسو انهامه لهذه
الحقبة من الزمن !

وسار وحده ومات وحده وعاد

يصبح مت لم تزل

بقية من الكلام في في

نفيت مرتين : مرة هنا

ومرة هناك في الحدائق المعلقة

وعدت يا معاوية

القي بشعرة الذئب

في مغازل العناكب المشردة

.....

بلال لم يزل مؤذنا

في ثقب ابرة بلال

ليس في الأمر بطوله

سأقاتل

ابدا ما دام في الارض سجون وسلاسل
وشرور ومهازل ..

سوف ابقى في خطوط النار ما دمت قويا
وسلاحي في يديا ...

ربما لن اشهد النصر ، ولن اجني الثمار
ربما ارقد في بعض القفار

ضائع الاثار ، منسيا كآلاف الجنود

ليس لي قبر يزار

وتفطيه الاكاييل وهالات الخلود ! ..

ربما ينكرني حتى رفاقي في الجهاد

ولعلي سأتوج

بدل الغار بعوسج

غير اني سوف ابقى في جحيم المعركة

ويدي فوق الزناد

كابحا جوعي وصيحات جراحي المهلكه ! ...

سأقاتل

دون ان احفل ان الموت مائل

واللظى يحرق ، والالغام قربي تتفجر

ورفاقي مزق شوهاء حولي تتبعثر ! ..

الاني بطل ؟!

لا ، ليس في الامر بطوله

انما جئت فآلفت بنودا ومشاعل

وملايين تناضل

بتفان ورجوله

في سبيل الخبز والسلم واحلام الطفوله

فاذا قلبي تدوي فيه اشواق الكفاح

واذا بي ، ها هنا ، بين رفاقي في السلاح

رابضاً خلف المتاريس اقاتل ...

رشيد ياسين

منذ لم اكتب بماء الورد شعري
لجواريك ولم الهت
باوزاني من قصر لقصر ..
ونديمي / السيف
نظمي تحت رأسي

اما عمار بن ياسر ، فان معين بسيسو يبلغ موقفه في قصيدته
عنه ذروة من الالتزام ، ويربط بين الكلمة والموقف ، بين عمار بن ياسر
القديم ، وكل عمار بن ياسر جديد ، يقف ضد الصنمية في الادب
والحياة على السواء .

لقد أضم كفار الماضي نارا كي تحترق عمار بن ياسر القديم ..
واليوم يحدث العكس ، فيضرم الشعب نارا جديدة ، لا لتأكل كل عمار
جديد ، ولكن لتقف الى جانبه ، وتحرق أعداءه .. وفي هذا ، يقول
معين بسيسو :

فكليه وهو في اقماطه

هذا الحجر ..

قبل ان يحبو وأن ينمو

وان يغدو صنم !

اما الكراسية الثالثة والاخيرة في هذا الديوان ، فيخصصها معين
بسيسو لمواجهة وكشف الزائفين من الفنانين والشعراء . وكما لا تستطيع
قوة ان تزيف وجه بطل ، فكذلك لا تستطيع قوة ان تزيف وجه شاعر ،
فالبطل والشاعر نومان على حد قول جورج أمادو
ويقول معين في احدى قصائد هذه الكراسية مخاطبا بوشكين :

لو عشت في بلاط عصرنا في هذه الايام

حيث الارانب المرجاء

تركب الاقيال

وترتمي العنقاء في ففص

وتكتب الاسماك والحيات

أجمل الاشعار والقصص !

لجاء اصلع الجناح

من بطانة الامير

مبارزا

واشهرت في وجهك السلاحف الرماح

ويشهر معين بسيسو في وجوه أولئك الذين يبيعون الكلمة في

أسواق النخاسة ، نورا كاشفا فاضحا يمزق أفئنتهم ويسقطها عن

وجوههم ، فيقول :

يا أبا الطيب خصيان السلاطين وغلماں القياصر

كل ذي قرط وخلقخال

وعقد واساور

كل من قد شده النخاس

من وحل الصفائر

كل من لطح بالحبر الاظافر

جاءنا يركب صهوات القصاصد

الى ان يقول :

صار درع الفارس المقتول

بيتا للعناكب !

آه يا سيف المحارب !

لعلني في هذا الحديث العاجل ، قد استطعت أن ألقى بعض

الضوء على جوانب من شعر معين بسيسو في ديوانه الاخير الاشجاسار

تموت واقفة .

عبد الرحمن الخميسي

القاهرة